

## الفصل الخامس

### الشيعة الإيرانيون.. ومخططات الدول الغربية

اندفعت قوات الإمبراطورية العثمانية الفتية باتجاه أوروبا فاستولت على منطقة البلقان. وحققت نجاحها الكبير بالاستيلاء على القسطنطينية «استانبول» عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية» لتنتهي وجود هذه الإمبراطورية وتطوى صفحاتها. وكانت خسارة الغرب لليونان أحد ينابيع الحضارة الغربية أكبر من أن توصف.

وواصلت هذه القوات تقدمها حتى توقفت أمام أبواب فيينا عاصمة إمبراطورية النمسا والمجر ومع وقع أقدام هذه القوات وهي تتقدم كانت قلوب الأوروبيين تدق وتنبض بقوة خوفا وفزعا وأثارت هذه المخاوف الجديدة ذكريات القوات الإسلامية التي استولت على الأندلس في «شبه جزيرة أيبيريا» وانطلقت منه عبر جبال اليرانس باتجاه فرنسا ولولا نجاح شارل مارتل في وقف هذا التقدم بانتصاره في معركة بواتييه لارتفعت الأعلام الإسلامية فوق العديد من الدول الأوروبية. وهذه المعركة يسميها العرب بلاط الشهداء، لكثرة عدد المسلمين الذين سقطوا شهداء في ساحتها.

هذا الحضور الإسلامي القوى سواء من الجنوب الغربي أو من الشرق حفز الدول الغربية المسيحية للعمل لمنع من تحقيق أى نجاح جديد فى أوروبا أولا.. ولحصاره ثانيا، ثم تفئيته واستنزاف حيويته وقوته تمهيدا لمرحلة الانكسار والانهييار.

وكانت أوروبا المسيحية قد حاولت أن تقضى على العالم الإسلامي بالتوجه إلى منطقة القلب مباشرة بقوات عسكرية تقاتل تحت راية الصليب، إلا أن هذه الحملات التي عرفت بالحروب الصليبية تكسرت موجاتها الواحدة تلو الأخرى، وأخيرا انسحبت بكل جراحها وهزائمها وإن كانت قد ساعدت على تغيير اتجاه العمل.

وتبينت أوروبا أن الإسلام انتشر من منطقة القلب التي شهدت مولد الرسول ﷺ والرسالة على شكل موجات تتخذ شكل الأقواس باتجاه الشرق والغرب فمن الروم شمالا إلى فارس شرقا، ثم مصر وشمال أفريقيا والأندلس غربا، وخراسان وبلاد ما وراء النهر والهند والصين شرقا.

واتخذ المخطط المضاد العمل من اتجاه الأطراف وهكذا ضاعت الأندلس أولاً ثم البلقان.. وبدأت الأقواس البعيدة تنكمش واحدا وراء الآخر.

ونتوقف أمام سطور كتبها القس الإنجليزي صامويل مورشاس ١٦١٣-١٦٢٦ فى كتاب له عن رحلة قام بها للشرق ويقول فى هذه السطور.. كانت الدولة العثمانية باعث رعب للعالم المسيحي.

وهناك الآلاف من السطور المائلة تضمها الوثائق والكتب سواء أكانت سياسية أم علمية أم تاريخية.. وكان من المنطقى أن تتحرك أوروبا بكل قوة وبكل ما تملك من قدرات اقتصادية وسياسية وعلمية وعسكرية ، وأيضاً بما لديها من باع طويل فى التأمر لإزالة أسباب هذا الفزع.

وبالرغم من العداة وتناقض المصالح وأنهار الدماء المراقبة بين الدول الأوروبية . إلا أنها اتفقت على إضعاف الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها. وقدرت انجلترا التى دخلت عصر الاستعمار بكل قوة حتى تحولت إلى إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس فى بداية القرن الثامن عشر، أنها تحتاج إلى قرن من الزمان لتصفية العثمانيين.

وطوال سنوات الصراع العسكرى مع العثمانيين تنبه الأوروبيون إلى حاجتهم إلى حليف أو قوة عسكرية تستنزف قوى العثمانيين من اتجاه آخر وكان العثمانيون قد أبدوا بطولة وقدرة على المقاومة وهم يقاتلون الروس على الجبهة الشمالية الشرقية، وباقى الأوروبيين على الجبهة الغربية.

وعندما اتجهت أفكار الأوروبيين إلى حليف أو قوة تفتح جبهة شرقية أو جنوبية شرقية لتشتيت القوى العسكرية للعثمانيين ، بالعمل على ثلاث أو أربع جبهات، تبيينوا أن جميع سكان المناطق أو الأراضى والولايات أو الدول المتاخمة لأراضى الدولة العثمانية لها من المسلمين السنة، وهذا يعنى أن المسلمين السنة لن يشتبكوا مع الخلافة العثمانية التى تدين بالإسلام وتتخذ السنة مذهبها، والأهم أنها ترفع راية الدفاع عن الإسلام فى مواجهة أعدائه.

ومن هنا بدأ التفكير فى الاستعانة بالشيعية المسلمين لقتال المسلمين السنة. وكان ذلك يتطلب :

- تكوين كتلة أو قوة شيعية.

- زيادة حدة التعصب للمذهب الشيعي بين الشيعة حتى يمكن استغلاله لدفع المتشيعين لقتال إخوانهم من المسلمين السنة.

- أن تكون هذه القوة الشيعية مسيطرة على أرض مجاورة لأراضي الإمبراطورية العثمانية ليسهل فتح الجبهة المطلوبة.

ولم يكن هناك أفضل من إيران أرض وقلب الإمبراطورية الفارسية القديمة، لتحويلها إلى دولة شيعية ودفعها للصدام مع العثمانيين السنة.

وما أسهل خلق الذرائع وتوفير الأسباب لمثل هذا الصدام.

وبالرغم من أن نسبة الشيعة بين المسلمين في العالم كانت تبلغ أقل من ١٠٪ وقتذاك، إلا أن الأمر كان يستحق المحاولة.

ووقع الاختيار على الصفويين لأداء هذا الدور.

ويرجع أصل الصفويين إلى الشيخ صفى الدين إسحق الأربيللى المسلم الصوفى الشديد الزهد، تلميذ الشيخ الجيلانى وزوج ابنته فاطمة. ثم خليفته فى رئاسة الطريقة التى توارثها عن الجنيد البغدادي عن السرى السقطى عن معروف الكرخى.

وقد ورث صفى الدين الطريقة باتباعها الكثيرين المنتشرين فى جيلان وأذربيجان.

وبعد وفاة الشيخ صفى خلفه ابنه صدر الدين موسى الذى تزايد فى عصره نفوذ الطريقة الدينى والسياسى والمالى نتيجة علاقته ببعض الحكام والقادة والأمراء خاصة تيمور جوركان لك، الذى خاض عدة معارك مع السلطان بايزيد العثمانى الذى كان يسمى بالصاعقة «ايلدرم» باللغة التركية. وامتلكت الطريقة قوة ضاربة هائلة عندما أطلق تيمور سراج عدد كبير من أسراه استجابة لطلب صدر الدين.

وهؤلاء الأسرى كانوا عماد دولة الصفويين فيما بعد، كما قرر تيمور وقف اربيل وما حولها للطريقة الصفوية وإعفاءهم من خراجها، كما أمن كل من يلجأ إلى زاويتهم حتى ولو كان من أعتى الجناة أو أخطر الأشرقياء.

وآلت الطريقة إلى جنيد ابن صدر الدين بعد وفاته، وكان أول من حمل لقب سلطان واستغل جنيد الأموال والمريدين فى نشر الدعوة، وأمام زيادة قوة ونفوذ هذه الجماعة. طلب منهم ميرزا جهانشاه السلجوقى، ملك إيران آنذاك الابتعاد ليعيشوا فى سلام وإلا قضى عليهم، وفعلا غادر جنيد وأتباعه أربيل إلى ديار بكر. وهناك استقبله حاكمها حسن بك أق قويونلو بحفاوة، حيث كان من أتباع الطريقة وزوجه أخته حليمة سلطان.

وشهدت المنطقة آنذاك بداية خيوط المؤامرة الغربية لتحويل سكان إيران إلى المذهب الشيعي.

## الغرب.. وميلاد إيران الشيعية

للقضاء على الإمبراطورية العثمانية لكل ما سببته من فزع وكوابيس للعالم المسيحي أثناء تقدمها تحت رايات الإسلام فوق أرض البلقان الأوروبية، قررت الدول الأوروبية الاعتماد على الجماعة الصفوية وزيادة قوتها ونفوذها تمهيدا للتالي:

- السيطرة على إيران وما جاورها من مناطق.
- تحويل السكان إلى شيعة وحفزهم على التعصب والتطرف والتحريض لقتال دولة الخلافة التي تدين بمذهب السنة.
- تغذية الصراع الشيعي السني لاستنزاف العثمانيين وإضعافهم تمهيدا لمرحلتى التفتيت والانهييار، وفعلا بدأت جماعة الصفويين تحت قيادة جنيد بن صدر الدين تزداد قوة ونفودا.

وتنبه ميرزا جهانشاه السلجوقي ملك إيران للخطر الذي تمثله الجماعة على دولته وعليه خاصة وهم يحيطون بإيران من الشمال والغرب، فالأتباع ينتشرون في جيلان وأذربيجان في الشمال والسلطان جنيد يقيم في أردبيل غربا. ولحماية نفسه وتأمين دولته طلب منهم الابتعاد عن أردبيل ليعيشوا في سلام وإلا قضى عليهم. ولم تكن الظروف قد تهيأت بعد للصدام والاستيلاء على إيران، فقرر السلطان جنيد الابتعاد بجماعته إلى ديار بكر. في انتظار الظروف المناسبة للعودة. وهناك استقبله حسن اق قوينلو حاكم ديار بكر وزوجه من أخته حليلة سلطان. وكان حسن اق قوينلو من أتباع الطريقة الصفوية.

وبهذه المصاهرة ازداد جنيد قوة. فقرر العودة لقتال ملك إيران الذي أبعدته ورجاله عن أردبيل. وعلى أرض إقليم شيروان غرب بحر قزوين الذي يضم مدينة باكو حاليا. دارت المعركة. ولقى سلطان الصفويين الهزيمة وسقط صريعا. فخلفه ابنه حيدر ميرزا. ولم يقبل حسن بك اق قوينلو صهر الجنيد بهذه الهزيمة فخرج بقواته للثأر لمقتل زوج أخته. وتوجه إلى تبريز وانتهى الأمر بأسر جهانشاه ملك إيران وضم هذه المناطق إلى ملكه. ومرة أخرى تعود أردبيل للصفويين بعد أن قرر حسن اق قوينلو أن يهبها لهم. ولم يكتف بذلك بل زوج

حيدر ابن جنيد ابنته مارتا التي أصبح اسمها بعد الزواج عالم شاه بيكم وبيكم لقب للنساء يعادل لقب بك للرجال ويكتب باللغة العربية بيجوم.  
هكذا أصبح حيدر ابن الأميرة حليلة سلطان شقيقة السلطان حسن زوجا للأميرة هي مارتا ابنة نفس السلطان.

ويوضح الدكتور فتحى الريس فى كتابه القيم «إيران وعلاقتها الخارجية فى العصر الصفوى» إن عالم شاه ابنة السلطان حسن من زوجته المسيحية تيودورا التى عرفت باسم «دسبينا خاتون»، وتيودورا ابنة كالمو جوهانس شقيق ديفيد كومنينوس إمبراطور طرابزون الأرمنى آنذاك.

ليس هذا فقط بل كانت أختها متزوجة من كاترينو زينو سفير دولة البندقية ومبعوثها لدى السلطان يعقوب بن حسن بك اق قوينلو. وقد أنجبت «مارتا» عالم شاه بيكم من حيدر سلطان الصفويين ثلاثة أبناء هم: على ميرزا، وإبراهيم ميرزا، وإسماعيل ميرزا.

وعمل حيدر ميرزا على زيادة قوة الصفويين ونفوذهم، ورأى أن يميزهم عن غيرهم فادعى أن الإمام على بن أبى طالب جاءه فى المنام وصنع له عمامة من الصوف الأحمر بها اثنتا عشرة ثنية طولية تشير إلى أئمة الشيعة الاثني عشرية وكان يطلق على لابسى العمامة «قزل باش» أى لابسى العمامة الحمراء.. وسمى لابسو هذه العمامة بالقزلباشية.

وتتوالى الأحداث بعد مقتل حيدر ميرزا أثناء قتاله للسلطان خليل، ملك شيروان إلى أن يجلس إسماعيل ميرزا ابن حيدر ميرزا على عرش تبريز عام ١٥٠٠، ولم يتوقف إسماعيل بل قاتل لمد سلطانه، فاستولى على شيروان وأسر ملكها الذى أمر بطبخه وتقديم لحمه للكلاب انتقاما منه لمقتل أبيه السلطان حيدر أثناء هجومه على شيروان.

وضم بعد ذلك العراق العجمى وفارس وكرمان وخوزستان بعد انتصاره على مراد بن رستم، وتوالى ضم الأراضى.

ولم يكن ممكنا أن يتجه بقواته لقتال العثمانيين المسلمين، وأيضا لم يكن مقبولا أن ينضوى كحاكم مسلم تحت مظلة الخلافة العثمانية بأى شكل من الأشكال، ولم يكن مستساغا أن يظل سنيا ومناوئا لأمير المؤمنين الخليفة السنى.

ولمجابهة هذه العوامل رأى تغيير المذهب السنى السائد فى إيران والاتجاه إلى التشيع بل والغلو فى هذا المذهب لإثارة العداء بين المذهبيين لدفع الناس للحرب بوازع الحفاظ على المذهب.

وتطابق هذا التفكير مع أسلوب التفكير الأوروبي وما نتج عنه من مخططات لتحويل كتلة إسلامية- شرق آسيا الصغرى- إلى المذهب الشيعي تمهيدا لفتح جبهة أو جبهات أخرى من هذا الاتجاه لإضعاف الإمبراطورية العثمانية تمهيدا لتفتيتها.

وهنا علينا أن نتذكر أن إسماعيل الصفوى ابن مارتا عالم شاه بيكم التي ولدت لأم مسيحية هي تيودورا «دسينا خاتون» وأن تيودورا هي ابنة شقيق إمبراطور طرابزون.

ويقول الدكتور فتحى الرئيس: إن هذه المصاهرة تساعدنا على تفسير اتجاه الشاه إسماعيل الصفوى منذ اعتلائه عرش إيران إلى فرض المذهب الشيعي على الناس بالقهر. وعلى أنقاض الجماجم وعبر أنهار من الدماء زادت نسبة الشيعة بين المسلمين. كما يمكننا تفسير هذا التقارب الشديد بين الدولة الصفوية وبين دول أوروبا المسيحية، وتحالف الجميع ضد الدولة العثمانية المسلمة السنية التي أخذت على عاتقها الدفاع عن الإسلام والدول الإسلامية آنذاك.

وقد أدى هذا التحالف إلى إضعاف الدولة العثمانية وإنهاك قواها فى حروب ضارية مع الصفويين شرقا والأوروبيين غربا حتى انهارت الدولة العثمانية واقتطعت أقطارها الإسلامية لحساب الدول الغربية التي حولتها إلى مستعمرات ظلت تحكمها نحو مائة عام أو أكثر. وبعد أن تحقق هذا الهدف استدار الغرب إلى إيران نفسها واقتطع أجزاء كبيرة منها وكان من نصيب الروس الاستيلاء على الأراضى الموجودة شرق وشمال بحر قزوين ومن بينها جمهوريات جورجيا وأرمينيا وأذربيجان وكل البلاد الموجودة وراء النهر مثل أوزبكستان وتركستان وطاجيكستان وقرغيزيا، وانتهى الأمر بالقضاء على الدولة الصفوية بعد انتهاء دورها، ونجاحها فى إنهاك واستنزاف دولة الخلافة وعندما يثور الشيعة الإيرانيون ويهددون مصالح الغرب فإنهم ينسون أنهم ولدوا على يديه وأن تأديبهم أمر يسير. وبجانب الأسباب الموضوعية لحرب التدخل العراقية ضد إيران الثورة لاستنزافها، فإن البعد التاريخى لم يكن غائبا، وبعد أن حققت حرب التدخل أهدافها تنبه الإيرانيون واستوعبوا الدرس وبدأوا يتحركون فى إطار الهامش المتاح لهم.

### إيران شيعية.. كيف؟ ولماذا؟

يرتبط اسم إسماعيل الصفوى بعملية إرغام وقسر سكان إيران والمناطق المجاورة التي خضعت لنفوذه على اعتناق المذهب الشيعي والتخلي عن المذهب السني.

ولم يكن الأمر يسيرا بل غاية في العسر، ولكن إسماعيل الصفوى مضى يخوض بحر الدم بكل أعماقه وتياراته سعيا وراء هدفه. وهدف الدول الغربية المسيحية فى نفس الوقت، ونحن نعلم أن إسماعيل الصفوى. ابن لأم مسيحية هى مارتا وجدة مسيحية هى تيودورا.

وعندما قتل أبوه حيدر ميرزا أثناء قتاله للسلطان خليل ملك شيروان «أرمينيا» اضطربت أوضاع هذه المنطقة من إيران اضطرابا شديدا وتوالى جلوس الملوك وعزلهم أو قتلهم. ولخشية أبناء حيدر ميرزا على إبراهيم وإسماعيل على أنفسهم اضطروا إلى الفرار، ولكن قوات السلطان رستم تعقبتهم واستطاعت قتل على الابن الأكبر، وتمكن إبراهيم وإسماعيل من الفرار واللجوء لـ «كارىكا» حاكم جيلان.

وظل إسماعيل لدى حاكم جيلان وعندما بلغ الثانية عشرة أعرب عن رغبته فى العودة إلى أردبيل، ولكن الحاكم طلب منه البقاء عامين آخرين، وخلال تلك الفترة بلغهم نبأ موت رستم بك ففرحوا، وقال إسماعيل ميرزا: «الآن حان وقت خروجي». ومن المنطقى أن ندرك أن غلاما فى الثالثة عشرة من عمره لا يمكنه أن يتحرك من تلقاء نفسه، ولكن الحلقة المحيطة به والتي وضعت حوله بعناية، كانت صاحبة التأثير الأوفى عليه وعلى قرارته. وغادر إسماعيل وأخوه إبراهيم ولاية جيلان ومعهما عدد من المرافقين والمريدين، وتوجهوا إلى أردبيل وعلى امتداد الطريق التفت حولهما ٣٠٠٠ من قدامى المريدين. ودخل الجميع أردبيل، وحاصروا بيت الحاكم. وعندما مثل الحاكم أمامه وعده بتعيينه قائدا لجيشه بشرط أن يتشهد بشهادة التشيع وهى: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأن عليا ولى الله»، وعندما رفض الحاكم أمر بحرقه، وكانت أول نار يوقدها لإحراق المخالفين، وتلى ذلك إيقاد نيران كثيرة.

وتعتبر هذه الواقعة أول تحرك إيجابى لإرغام الناس على التشيع: بعدها أمر بجمع أهل المدينة من السنة وطلب منهم النطق بشهادة التشيع. وضم من نطق بها إلى رجاله، ومن رفضها ألقى به فى النار واضطرت الأغلبية إلى التشيع خوفا من الحرق. ومن الغريب أن بعض قرى أردبيل بعد كل ما جرى مازالت سنوية حتى الآن.

وبهذه الخطوة وصل عدد رجاله إلى ١٤ ألف رجل ترك نصفهم بالمدينة لحمايتها، وتوجه بالآخرين إلى تبريز العاصمة.

ودارت معركة بينه وبين ألوند ميرزا تحقق له فيها الانتصار. وعندما أخبره رجاله أن هناك عشرين ألفاً من جيش ألوند ميرزا مازالوا على قيد الحياة أمر رجاله بالإبقاء على حياة من يتشيع وقتل من يأبى.

وقبل أن يدخل في المذهب - ما يقرب من ٣٠٠٠ - استطاع حوالي ٣٠٠٠ آخرين الهرب ولحقوا بملكهم ألوند ميرزا. وخلال نصف نهار تم قتل حوالي ٤١ ألف رجل، ودخل إسماعيل الصفوى تبريز عام ١٥٠٠. ليجلس على عرش جده لأمه حسن اق قوينلو الذهبى وكان على مشارف الرابعة عشرة من عمره، وبدأت إجراءات فرض المذهب الشيعى بمدينة تبريز.

ويقول الدكتور فتحى الرئيس: إن رجال الشاه إسماعيل الصفوى حذروه من خطورة الإقدام على ذلك الأمر، وأوضحوا له أن إعلان المذهب الشيعى قد يؤدى إلى قيام السنة الذين يشكلون أكثر من ثلثى عدد السكان بالثورة ضده مما قد يعرض ملكه للخطر، ورد عليهم بقوله إن الإمام على بن أبى طالب قد كلفه بهذه المهمة!! ثم أمر القزلباشية - جنوده الذين يرتدون العمام الحمراء - بالتجمع فى المسجد الجامع يوم الجمعة الذى حدده لإعلان المذهب رسمياً.

ونهب الشاه إسماعيل وحمل القزلباشية سلاحهم، وصعد المنبر شاهراً سيفه. وعندما قرأ الخطبة باسم الإمام على وأئمة الشيعة، حدثت همهمة بين المصلين، فأطبق عليهم القزلباشية وطلب منهم الشاه أن يتبرأوا، أى أن يتبرأوا من خلافة أبى بكر وعمر وعثمان، لأنهم تولوها بغير حق من وجهة نظر الشيعة، وإلا فإن القتل جزاء من رفض، فتبرأوا جميعاً من شدة الخوف.

وخرج قائد التبرأين سائراً أمام الشاه إسماعيل الصفوى وهو يحمل فى يده بلطة ويردد عبارات التبرؤ، ومن لم يرددتها وراءه قطع رأسه فوراً.

وكان إسماعيل الصفوى مدركاً أنه لن يستطيع أن يخوض الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية إلا بعد أن يفرض المذهب الشيعى على رجاله أولاً وعلى سكان إيران ثانياً وكل الأراضى التى يستولى عليها بحد السيف ولم يكن ذلك سوى الخطوة الأولى، أما الخطوة الثانية فهى التعصب للمذهب وإلى أبعد مدى.

وإذا كان التشيع هو الطريق لقتال العثمانيين السنة، فإن التعصب والغلو والتطرف طريق يدعم الطريق الأول، حيث يكون الهدف من القتال هو الحفاظ على المذهب، وذلك لن يتحقق إلا بالانتصار على الأعداء السنة.

وليكتسب إسماعيل الصفوى مزيدا من النفوذ عمد إلى نيل الصفة الدينية بجانب صفة  
الديبوية كملك وقائد لقواته ، وهذه الصفة التى تدعم سلطاته المدنية تتأتى بالترويج لفكرة  
ولاية الفقيه. وطلب الشاه من على بن عبدالعال الكركى العاملى كبير علماء الشيعة بجبل  
لبنان ، أن يعمل لتوطيد دعائم السياسة والملك ، ويجيز جلوسه على كرسى الملك والحكم  
باسم الولاية العامة ، وهى من صلاحيات ولاية الفقيه. وبهذا أصبح الشاه إسماعيل بصفته  
الدينية تلك يعلو فوق أى سلطة أخرى فى الدولة.

ولأن الفقيه أو الإمام لدى الشيعة له الحق فى خمس مكاسب ودخل كل فرد شيعى ولأن  
الشيعة يحترمون دفع هذه الأخماس بل ويحرصون عليها لنيل رضا الإمام ، بكل ما يعنيه  
ذلك. فإن لنا أن نتصور ضخامة المبالغ التى يتم جمعها نتيجة لذلك ، وما يمكن أن توفره  
هذه الأموال من إمكانيات وقدرة على الحركة للحاكم الإمام. وهذا الدخل يتجاوز بكثير جدا كل ما يمكن أن تحصله الدولة من ضرائب. وقد  
تكدست خزائن الصفويين بالثروات والأموال.

ومن المنطقي أن توفر الأموال للشيعة نتيجة الأخماس ، ساعدهم على تسليح الجيوش  
والإغداق على القادة والجنود وساعدهم أيضا على تجنيد الجواسيس والعلماء وتمويل  
عملائهم وأنصارهم فى الدول المجاورة أو الدول المستهدفة.

وعندما استقرت الأمور فى تبريز وما حولها توجه الشاه إلى مازندران عام ١٥٠٣ حيث  
حاصر قلعة «حبله رود» التى تحصن فيها حاكمها حسين كيا وقطع عنها الماء ، وعندما  
استسلم كل من كان بالقلعة أمر بإحراقهم جميعا رجالا ونساء وأطفالا وكهولا فى بيوتهم  
وحصونهم وانتقل ليواجه التركمان الجغتائيون فى طبس على حافة الصحراء الكبرى  
الإيرانية عام ١٥٠٤ حيث قتل منهم سبعة آلاف فرد وذاع خبر هذه المذبحة فى أرجاء  
خراسان «أفغانستان» فعمها الخوف من بطش الشاه. وفى عام ١٥٠٨ دخل الشاه إسماعيل  
بغداد ، حيث أجلس خادمه على عرش العباسيين استهزاء واحتقارا. ولم ينج من غضبه لا  
الأحياء ولا الأموات ، فقد نبش قبر الإمام أبى حنيفة وأخرج عظامه وأحرقها.

ولم يفعل الشاه ذلك اعتباطا ، فقد أراد به استفزاز العثمانيين السنة بعد أن أصبح  
مستعدا لمواجهتهم ، وفتح جبهة من اتجاه الشرق بعد أن أصبح على حدودهم الشرقية.  
ولم يكن ممكنا أن يتنبه العثمانيون إلى الكمين الذى نصبه الغرب واستخدم فيه  
الصفويين ، فقد كان التخطيط محكما وبالغ الدقة والدهاء وطول النفس.

## السطور الأولى من أسطورة الإمام الغائب

### من هو الإمام الغائب عند الشيعة؟

والإجابة عن هذا السؤال تعتبر مدخلا لفهم جانب من الأسباب التي دفعت الدول الغربية المسيحية إلى الاعتماد على الشيعة لقتال الإمبراطورية العثمانية السنية المذهب. تمهيدا لتصفيتها واقتسام تركتها. وأيضا فإن الإجابة تضيء الطريق أمام الباحثين عن الحقيقة فيما يتعلق بالمذهب الشيعي والمتطوعين لمعرفة الأبعاد والجذور الحقيقية خاصة بالنسبة للكتلة الشيعية الكبيرة التي تتبع طريق الإمامية الاثنا عشرية.

والإمام الغائب أو المهدي المنتظر أو صاحب الزمان أو قائم آل محمد أو الحجة أو غير ذلك من الألقاب التي يلقب بها والتي تزيد على المائة، هو الحفيد التاسع لعلی بن أبی طالب وهو محمد بن الحسن العسكري بن علی الهادي ابن محمد القانع بن علی الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علی زين العابدين بن الحسين بن علی بن أبی طالب.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء الأحفاد التسعة جدهم علی بن أبی طالب وآباهم الحسين وأخاه الحسن صاروا اثني عشر إماما. هم أئمة الشيعة الاثني عشرية أو الجعفرية.

وإذا كانت هذه سلسلة آباءه. فمن هي أمه؟

وهذا هو السؤال العمدة، أو عمدة الأسئلة.

وهنا لا يحق لنا أن نحصل أو نبحث عن الإجابة في مراجع غير المراجع الإيرانية الشيعية ومن الأفضل أن تكون مكتوبة باللغة الفارسية أي أن نرجع إلى مراجع لا يشك الشيعة في صحتها وصحة ما ورد بها.

وإذا كان الشيعة يسلمون بصحة مراجعهم، فإن ذلك وحده يصلح سندنا ينفي أية شبهات يمكن أن تثور فيما لو اعتمدنا على مراجع أخرى.

وتروى مراجعهم أن الإمام الهادي كتب رسالة وبعد أن أغلقها سلمها لخادمه بشر الأنصاري ومعها منديل أصفر به ٢٢٠ ديناراً، وطلب منه أن يتوجه إلى بغداد، وهناك يقف عصرا على نهر دجلة حتى تصل السفن المحملة بالجوارى. وطلب منه أن يراقب تلك السفينة التي يتولى فيها البيع عمرو بن يزيد النخاس. وأخبره أن من بين الجوارى جارية تأتي عرض نفسها ولا تدع أحدا يرفع نقابها أو يسمع صوتها.

ولم يكتف الإمام الهادى بذلك، بل تمضى الرواية فتقول إنه أعطى خادمه أوصافاً وعلامات منها أنها ترتدى رداءين من الحرير وعلى كتفها شال من الحرير ليس ذلك فقط بل أخبره أنها ستتحدث باللغة الرومية لترد على إلحاح المشتريين والبائعين ثم تقول باللغة العربية: «واحسرتاه على عفتى التى انتهكت».

وسيحاول أحد شراءها بمبلغ ٣٠٠ دينار فترفضه وتخبره بأنها لا ترغبه حتى ولو كان له ملك سليمان، وعندما يقول النحاس: «ليس هناك مفر من بيعك» سترد عليه بقولها: «لا تتعجل فسوف يظهر المشتري الذى أريده».

ويواصل الإمام الهادى تعليماته لخادمه بشر ويطلب منه أن يتقدم عندئذ من النحاس ويستأذن أن يطلع الجارية على رسالة من أحد الأشراف مكتوبة بالخط الرومى. ويخبره أنه لو مالت الجارية لصاحب الرسالة فسيشتريها.

وينفذ بشر تعليمات سيده «على الهادى»، ويحكى أن الجارية ارتفع صوتها بالبكاء عندما قرأت الرسالة وتعلن بقوة رغبتها فى صاحب هذه الرسالة وإلا قتلت نفسها. وبناء على هذا الموقف ساوم بشر النحاس حتى وافق على بيعها له بما يحمله من دنائير.

وفى الحجرة التى استأجرها عادت الجارية لتقرأ الرسالة وتقبلها وتمسح بها عينيها. وعندما تساءل بشر كيف تفعل ذلك برسالة لم تر صاحبها أجابته بأنه يجهل عظمة أبناء وأوصياء الرسول.

ثم أخبرته أن اسمها نرجس، وأنها ابنة يسوع بن قيصر ملك الروم وأنها من بنات شمعون بن حمون الصفا وصى عيسى بن مريم عليه السلام.

وقصت عليه أن جدها القيصر أراد أن يزوجها لابن أخيه فجمع كل القسس والرهبان، واختار من بينهم ٣٠٠ بالإضافة إلى ٧٠٠ من أمراء الجيش وأصحاب المناصب و ٤٠٠٠ من الأشراف والأعيان وكبار العسكريين، وأخرج عرشاً مزينا بالجواهر ووضع فى وسط القصر على قوائم مرتفعة وأجلس عليه ابن أخيه، وعندما بدأ الرهبان فى القراءة من الأناجيل المفتوحة، اهتز القصر فجأة، وتساقط الذين بالقصر وتحطمت قوائم العرش وسقط الأمير فاقد الوعي والإدراك.

وقال القسس الذين اصفرت وجوههم من الخوف وارتعشت منهم الأطراف للقيصر: «إن هذا الحادث دليل على مظاهر سوء وأنه قال سىء ولكن القيصر أمر بإعادة الصلبان

إلى أماكنها وتثبيت القناديل والتماثيل . وبدلا من أربعة قوائم أمر بتثبيت العرش على ٤٠ قائما، وأجلس عليه أخا آخر من إخوة الأمير الذى سقط من فوق العرش ليأخذ مكانه كزوج للأميرة فربما كان حظه أفضل فيقضى على نحس الأمير السابق، ولم تختلف النتيجة فقد انقلب العرش عندما تعرض القصر للزلزال ثانية.

وساد الرعب والهلع وجلس القيصر وحيدا حزينا، واختفت الأميرة مع همومها. ولما أقبل الليل رأت حلما مهولا، فقد اجتمع المسيح مع شمعون الصفا وجمع من الحواريين فى غرفتها، ونصبوا منبرا من النور يصل ارتفاعه إلى عنان السماء فى نفس المكان الذى كان فيه عرش القيصر.

وتواصل الأميرة حكايتها فتقول إنها رأت آنذاك رجالا نورانيين وأنهم أنبأوهم أن الرسول المصطفى ﷺ ووصيه وصهره على بن أبى طالب ومعهما ثمانية من أبنائهما قد حضروا وجلسوا ثم التفت الرسول إلى عيسى: «وقال له ياروح الله لقد حضرت لكى أصل نسبى بنسبك وأخطب الملكة نرجس لابنى أبى محمد حسن العسكرى . فنظر المسيح إلى شمعون وقال له: إن السعادة قد جاءتك فاعقد رحمك برحم آل محمد ﷺ فوافق شمعون، وعندئذ صعد الرسول إلى المنبر وألقى خطبة بليغة وزوجنى لأبى محمد . وشهد المسيح والحواريون على هذا».

وتواصل نرجس روايتها، فتقول إنها لم تقص هذه الرؤيا على أحد خشية أن تقتل . واحتفظت بهذا السر السماوى فى قلبها لم تبح به لإنسان قط ولكنها كانت واثقة من أن رؤياها صادقة وقد استولى عليها حبها لأبى محمد، وتسبب ذلك فى نحافتها التى أزعجت أباه وجددها اللذين أحضرا لها الأطباء لعلاجها، ولم يفلح أى علاج معها وعندما سألتها والدها عما إذا كان لديها أمل ترغب فى تحقيقه، طلبت منه أن يفك القيود والأغلال عن الأسرى المسلمين، فربما شفاها المسيح وأمه واستجاب الأب لطلبها وأفرج عن البعض فتظاهرت بالسعادة وتناولت بعض الطعام وأدى ذلك إلى تحسن معاملة أبيها للأسرى المسلمين.

وبعد ١٤ يوما على رؤياها، رأت فى النوم فاطمة الزهراء وسمعت صوتا يقول لها هذه أم زوجك فقالت لها: «إننى أشكو إليك أبا محمد» ويكت رغما عنها، فأجابتها بقولها: «مادمت على دين المسيح فلن يحضر ابنى إليك، وإن كنت تريدين رضاء الله والمسيح فيجب أن تختارى الإسلام حتى تحظى بزيارة أبى محمد».

فردت عليها بأنها مستعدة بقلبها وروحها، فطلبت منها أن تقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». فاستجابت لطلبها بعدها احتضنتها فاطمة الزهراء وقالت لها: «اسعدى فسوف تحظين قريباً برؤية أبي محمد» واستيقظت من النوم من شدة الشوق وبكت ثم استغرقت في النوم من جديد فرأت الإمام حسن العسكري فسألته لماذا كل هذا الجفاء؟ فتنت قلبى بحبك ثم ابتليتني بالفراق حتى صرت إلى هذه الحال، فأخبرها أن شركها كان سبب التأخير وأنه سيأتى إليها كل ليلة إلى أن يجمعهما الله فى الواقع والظاهر.

وقالت نرجس لبشر: ومنذ تلك الليلة وحتى الآن نلت بركة زيارة أبى محمد كل ليلة. وقد أصبحت نرجس بعد ذلك زوجة للحسن العسكري وأما لابنه محمد الذى اختفى فيما بعد ليصبح هو الإمام الغائب.

أى أن أم الإمام مسيحية جذورها تمتد لشمعون الصفا وصى عيسى بن مريم وجدها قيصر ملك الروم، وبهذه الأئمة التى نسجها الخيال الشيعى تحت ضغوط المؤثرات المختلفة الخارجية والداخلية. والارتباطات الخلفية غير المنظورة، زواج الشيعة بين المسيحية والإسلام.

ولم يكن هذا الزواج سوى مقدمة للأسطورة التى نسجوها حول الإمام الغائب.

## الأسطورة..

أسطورة عودة الإمام الغائب ليملاً الأرض عدلاً ونوراً بعد أن ملئت جوراً وفجوراً، لا تختلف فى كثير من ناحية الفكرة عن أساطير مشابهة تتجاوز مجرد كونها أسطورة. فقد لعب هذا الاقتناع دوره مع باقى عقائد الشيعة فى دفع الشيعة الإيرانيين لصدام دموى مع الإمبراطورية العثمانية. وانتهى الأمر بسقوط دولة الخلافة، ليس ذلك فقط بل وانطواء صفحة الخلافة تماماً عام ١٩٢٤.

والغرب المسيحي الذى ساعد على نمو الشيعة، وعلى سيطرتهم على مقاليد الأمور بإيران تحت إمرة الصفويين، هو الذى قضى على دولة الصفويين عام ١٧٣٥ بعد أن أدوا دورهم فى إنهاك الإمبراطورية العثمانية. ومازال الشيعة خاصة فى إيران يسيرون على نفس الدرب بدرجات متفاوتة القوة وفقاً للضغوط التى يتعرضون لها، لتحقيق أهداف تم التخطيط لها بالعواصم المؤثرة بالعالم الغربى. وهذه الأهداف تتناقض بالضرورة مع آمال وأحلام دول عربية وإسلامية كثيرة ومواصلة البحث عن الجذور كان من الضرورى التعرض لأسطورة الإمام الغائب والسطور الأولى لهذه الأسطورة كشفت لنا أن الإمام محمد بن الحسن

العسكري وهو الإمام الثاني عشر الذي اختفى والذي يؤمن الشيعة خاصة الإمامية الاثني عشرية بعودته؛ ولد لأُم مسيحية وبزواج أبيه الحسن العسكري من نرجس حفيدة شمعون الصفا وصى عيسى عليه السلام من ناحية الأم وحفيدة قيصر ملك الروم من ناحية الأب، نسجت الأسطورة تزواجا بين الإسلام والمسيحية ثم باجتماع الرسول المصطفى ﷺ والمسيح عليه السلام في رؤيا رأتها نرجس أثناء نومها.

وكان من الضروري أن تمهد الأسطورة طريقا للجمع بين نرجس والحسن العسكري بالرغم من تباعد المكان.

ولم تجد الأسطورة خيرا من وقوع الأميرة في أسر المسلمين وأن تباع كجارية فيشترئها بشر خادم الإمام الهادي ولنسمع معا نرجس وهي تقص قصة أسرها.

تحكى نرجس أن أبا محمد الحسن العسكري الذي تراه في منامها كل ليلة، أخبرها أن جدها القيصر سيرسل عما قريب جيشا لحرب المسلمين، وأنه سيذهب بنفسه في أعقاب هذا الجيش، وطلب منها أن تذهب معه لكي يجتمع شملهما.

وفعلا صحبت نرجس أباهما في هذا السفر وتمت المواجهة فجأة بين الجيشين وانتصر المسلمون، ووقعت في الأسر وانتهى الأمر بوجودها مع بشر وأوصلها بشر إلى الإمام على النقي الذي سألها كيف تشرفت بالإسلام، فأجابته بقولها: ماذا أقول عن شيء أنت أعلم به مني. فبشرها بأنه سيكون لها ابن سيملاً الدنيا من مشرقها إلى مغربها بالعدل والأمان بعد أن تكون قد ملئت بالجور والظلم.

فسألته. ممن؟ فأجابها، من الشخص الذي خطبك له رسول الله ﷺ من عيسى بن مريم وشمعون، وواصل الإمام على النقي حديثه وقص لها كل الأحداث التي سبق أن روتها لبشر الأنصاري خادم الإمام على الهادي الذي اشتراها من بغداد.

واستدعى الإمام أخته حكيمه خاتون، وعندما حضرت قال لها: هذه هي المكرمة التي تنتظرين رؤيتها، فاحتضنتها وقبلتها وهنأتها. وطلب الإمام من أخته أن تعلمها الفرائض والعلوم لأنها ستكون زوجة ابنه وأم المهدي قائم آل محمد.

وتمضى الرواية إلى أن يولد الإمام المهدي يوم الخميس ليلة الجمعة منتصف شعبان ٢٥٥هـ في عهد المعتد العباسي.

وتروى حكيمه خاتون بنت الإمام محمد التقي وأخت الإمام على النقي وعمه الإمام حسن العسكري «نسبة إلى حى العسكر في مدينة سامراء التي ولد وعاش ومات بها وليس

لأنه كان قائداً أو عسكرياً» أنها ذهبت في يوم الخميس ليلة النصف من شعبان إلى منزل ابن أخيها إمام الزمان حسن العسكري وعندما أرادت الانصراف طلب منها البقاء لأن ابنه العزيز سيولد هذه الليلة وهذا الإبن سيحيى الحق تعالى به الأرض بالعلم والإيمان والهداية بعد أن ماتت بشيوع الكفر والضلال.

وسألت حكيمة خاتون ابن أخيها ممن سيولد هذا الولد فأجابها قائلاً من زوجته نرجس، وبعد سماع هذه الإجابة ذهبت إليها ونظرت ظهرها وبطنها، فلم تر أثراً للحمل فاستولت عليها الحيرة، إلا أن الحسن العسكري أوضح لها أن أثر الحمل سيظهر عليها في الصباح. مثلها في ذلك مثل أم موسى.

وبهذه الإجابة حاولت الأسطورة أن تبني جسوراً مع الديانة اليهودية، مثلما زاوجت من قبل بين المسيحية والإسلام بزواج حسن العسكري الإمام الحادي عشر من نرجس حفيدة شمعون الصفا وقيصر الروم.

وتروى حكيمة خاتون أنها كانت على وشك الشك في الأمر، فأتاها صوت الإمام حسن من حجرته طالباً منها ألا تشك فقد اقترب وقت الميلاد. وفي الصباح استولى الاضطراب على نرجس فجأة، فضمتها إلى صدرها وقرأت عليها سورة القدر استجابة لطلب ابن أخيها.

وتقول سطور الأسطورة إنها سمعت الطفل يقرأ معها نفس السورة وهو في بطن أمه. ومثل هذا الحديث يذكرنا بالآية ٦٤ من سورة آل عمران، ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهو يمثل مزيداً من الربط بين الإسلام والمسيحية فيها هو الإمام الغائب يعيد قصة المسيح عليه السلام، ولا يتوقف الخيال عند الحديث في المهدي صبيها، بل يمضي إلى أبعد من ذلك حيث يتحدث وهو في بطن أمه، أي أن في الأمر معجزة مشابهة لمعجزة المسيح، وإن كانت أكثر إعجازاً.

وكان منطقياً أن يتحدث الإمام بعد مولده مباشرة لتكتمل سطور المعجزة الشيعية فما أن ولد حتى سجد ووجهه للقبلة وقد رفع سبابته نحو السماء، وقال «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن جدى رسول الله وأن أبى أمير المؤمنين وصى رسول الله»، ثم ذكر الأئمة واحداً بعد الآخر حتى وصل إلى نفسه.

وتصر الأسطورة على أنه لم يكن لبشر دخل في عملية الميلاد، فقد حجبت سترا بين حكيمة خاتون ونرجس عندما حانت لحظة الميلاد، بحيث لم تعد تراها، فخافت

وهرعت نحو الإمام حسن. فهدأ من روعها وطلب منها العودة حيث ستراه في مكانه، ولما فعلت ذلك تبينت أن الستر قد زالت، ورأت نورا في عيني نرجس بهر عينيها ورأت المولود ساجدا.

وأود أن أؤكد أنني لم أذكر حرفا واحدا إلا مستندا إلى مرجع يرجع إليه أهل المذهب الإمامي الاثنى عشرى ومن هذه المراجع كتاب بعنوان «مهدي القائم» للمؤلف حسين عماد زاده ومنشور عام ١٣٦٣هـ ومكتوب على الجزء العلوى للغلاف باللغة الفارسية «زند كافي حضرت ولى عصر صاحب الزمان» وقد طلبت من الدكتور فتحى الرئيس أستاذ التاريخ الإسلامى أن يترجمه إلى العربية وقد استجاب مشكورا.

وبمثل هذا النسج الأسطورى بكل أبعاده جرى حفر مجرى التيار الشيعى بعيدا عن فكر وعقائد السنة. وكان ذلك ضروريا لزرع التناقض والتضاد بين أنصار المذهبين وبما يكفى لإشغال نيران الصراع. وكانت أولى الثمار لهذا الصراع المساهمة فى القضاء على الإمبراطورية العثمانية، ولكن هل توقف استخدام الشيعة لصالح الأهداف والمخططات المشبوهة؟

وإذا كانت الإجابة.. بلا.. فهل كانت مساعدة شاه إيران لإسرائيل فى صراعها ضد العالم العربى مرحلة من مراحل هذا المخطط؟

وهل يمثل احتكاك إيران بدول منطقة الخليج وشبه الجزيرة واحتلالها للجزر العربية الثلاث مرحلة أخرى؟

وهل تمثل المطالبة بدور فى أمن البحر الأحمر ودعم المتطرفين بالمال والسلاح خطوة على طريق تحقيق هذه الأهداف؟

والأسئلة مازالت كثيرة، والشواهد التى تكشف حقيقة الدور الإيرانى الجديد أكثر وسطور التاريخ تبين لنا أن دور الشيعة الإيرانيين فى خدمة المخططات المعادية مازال مستمرا.

